العرب والاراميون قبل الاسلام وبداية تكون اللغة العربية

د. فابريزيو أ. بيناشيتي (*)

تاريخ العرب قبل الاسلام بقي منذ القدم حتى اليوم موضوعاً غامضاً، والمؤرخون العرب لم يولوه بعد الاسلام شيئاً من اهتمامهم، ولو فعلوا لكان عملهم يفتقر إلى الرجوع إلى أية وثائق مكتوبة.

ولذا فان أي هدف لإعادة بناء أي مخطط تاريخي للعرب قبل الإسلام لا يتم لنا تحقيقه الا بلجوئنا قبل كل شيء إلى المعلومات الضئيلة المتوافرة في الكتابات المسمارية القديمة (الأشورية والبابلية خاصة) وكتاب التوراة (العهد القديم) وآثار المؤلفين الأغارقة واللاتينيين القدامى والكتابات السريانية والشعر العربي الجاهلي.

لقد أمكننا معرفة الكثير عن تاريخ العرب قبل الإسلام بواسطة ما اكتشف من آثار؛ إلا أنه، على الرغم من أن تلك الاكتشافات قد حققت تقدماً ملموساً في مجال الكشف عن الحضارة القديمة في جنوبي شبه الجزيرة العربية لم نستفد كثيراً في مجال الكشف عن الموضوع الخاص بالحضارة والثقافة في شمال شبه الجزيرة العربية. وكذلك لم يفدنا في هذا الموضوع النشاط الهائل الذي قام به علماء الآثار السعوديون في استكشافهم لمواقع السكن القديمة في كل أنحاء بلادهم من مثل اكتشافهم مستوطنة قُريّة السكنية التي تقع على بعد ستين كيلومتراً جنوبي القلعة المدورة على طريق القوافل التجارية بين دمشق ومكة؛ وهي مدينة كبيرة محصنة تقع في منطقة كانت تملك نظاماً متطوراً للري يعود وجودها إلى القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

إن هنالك واحات سكنية كثيرة غنية بالبقايا الفخارية والآثار الأخرى في مدن تيماء وددن وخيبر والجوف (دومة الجندل) ويثرب (مدينة الرسول) يتم استكشافها بعمق هذه الأيام. وباستثناء بعض الحالات فإن هذه المواد الآثارية المهمة وربما الوحيدة المتاحة لنا بفضل الاستكشافات هي مجموعة كبيرة من النقوش والكتابات الأخرى المبعثرة على الأحجار والجدران (graffiti) والتي كتبها اصحابها باللهجات

* جامعة البندقية ـ ايطاليا.

التي كانت تعم شمالي شبه الجزيرة العربية من مثل التيمائية واللحيانية والثمودية والدنية والسيفيائية وهي لهجات يمكن عدها من اللهجات الممهدة للغة العربية الحديثة. غير أنها ويا للأسف نقوش كتابية قصيرة جداً ومن الصعب تحديد تاريخها؛ وأقدمها يبدو أنه يعود إلى القرن السادس قبل الميلاد وتحديداً إلى بداية حكم الأخمينيين Achmenid (سلالة فارسية) أي أول دولة أحاطت بمنطقة شمال شبه الجزيرة العربية من بلاد ما بين النهرين (العراق Mesopotamia حتى مصر، مما جعل شبه الجزيرة العربية منطقة استراتيجية. أما النقوش الكتابية المتأخرة فتعود إلى القرن السادس بعد الميلاد.

وهكذا تصعب علينا كما ترى إمكانية بناء مخطط تاريخي مستمد من هذه المعلومات المحدودة، غير أنه بالإضافة إلى الأدب المكتوب والاكتشافات الأثرية هنالك حقلان مختلفان يمكننا من خلالهما الحصول على مؤشرات مفيدة عن تاريخ العرب قبل الاسلام وهما أولاً تحليل اللغة العربية ولهجاتها المختلفة وثانياً الأبحاث الإثنية أو العرقية.

ولنبدأ ببعض الاعتبارات المتعلقة باللغة العربية. ان هذه اللغة هي أهم وأدق أثر ثقافي للعرب؛ ونحن لو شئنا أن نعرّف العرب فإننا نقول في التعريف بهم إنهم شعوب لغتها الأم هي اللغة العربية.

ولذلك فإننا عندما نتحدث عن تاريخ العرب قبل الإسلام فإننا نعني حصراً تاريخ تلك الشعوب التي كانت تتكلم باللهجات العربية ولا يمكن أن نعني على سبيل المثال تاريخ سكان جنوبي شبه الجزيرة العربية الذين كانوا يتكلمون بلهجات سامية مختلفة من مثل السبئية والمعينية والقتبانية والحضرموتية والحميرية.

إن تعريف اللغة العربية بشكل عام يتم على أنها لغة سامية جنوبية غربية (أي نشأت في جنوبي غربي شبه الجزيرة العربية) بالمقارنة مع اللغات السامية الشمالية الغربية كالأمورية والأوغاريتية والفينيقية والعبرية والآرامية واللغات السامية الشرقية من مثل الأشورية والبابلية. إلا أن الدراسات التي جرت مؤخراً اظهرت أن تعريف اللغة العربية كلغة سامية جنوبية غربية بما يطابق تعريف اللغات الأثيوبية واللغات التي سادت جنوبي شبه الجزيرة العربية ليس تعريفاً مناسباً إذ أن هنالك الكثير من الإثباتات الصرفية والتركيبية والبنيوية التي تدل على أن اللغة العربية هي لغة سامية شمالية غربية انتشرت في فترة معينة فوق منطقة تعتبر لغوياً منطقة جنوبية غربية أو تسودها اللهجات التي نشأت في جنوبي غربي شبه الجزيرة العربية.

هذا من ناحية ومن ناحية أخرى، ومن الوجهة الصوتية اللفظية، تشابه اللغة العربية كثيراً اللغة الأوغاريتية التي سادت القرن الرابع عشر قبل الميلاد. وذلك يعني أنها تملك طابعاً محافظاً متشدداً بالمقارنة مع اللغات الفينيقية والعبرية والآرامية. يضاف إلى ذلك أن اللغة العربية تحافظ على بعض التصنيفات المتصلة بقواعد اللغة والتي سقطت بمرور الزمن من اللغات الأخرى التي ذكرناها (مثل الوصل بين الجمل وصيغة المثنى وصيغة المجهول وتصريف الأفعال المزيدة) وهذا يظهر أن العربية كانت لغة شعب لم يشاطر كثيراً في الاتجاهات اللغوية التي سادت الشعوب المدينية في بلاد فلسطين وسوريا وما بين النهرين.

وكذلك فإن اللغة العربية من ناحية ثانية هي ابتكارية للغاية وبعض هذه الابتكارات متصل بالابتكارات التي حصلت في اللغتين العبرية والفينيقية (مثل أداة التعريف وطريقة التعبير عن التعلق) بينما تختلف في ذلك عن اللغة الآرامية.

إذا حاولنا فهم هذه الحالة الغريبة يجب علينا أن نعترف بأن اللغة العربية هي لغة سامية نمت في منطقة قريبة من حدود فلسطين وجنوبي سوريا مما جعلها

تشاطر إلى درجة معينة الابتكارات اللغوية التي حصلت في تلك المنطقة وأن تطور ابتكاراتها الخاصة بطريقة ذاتية (مثل نظام حروف الجر واختفاء صيغة المصادر وإدخال أداتي الوصل أنْ وأنّ).

وهذا يجرنا إلى أن نسأل متى بدأ تكون اللغة العربية؟ ليس من السهل الإجابة عن هذا السؤال. طبعاً وبالتأكيد يمكن القول أن اللغة العربية قد تكونت في وقت موافق لتكون اللغتين العبرية والفينيقية وفي الزمن الذي كانت فيه اللغة الآرامية قد ترسخت بقوة تمكنها من الصمود بوجه الابتكارات اللغوية القادمة من الغرب من مثل أداة التعريف والتحولات التركيبية الواسعة (المتعلقة بتركيب الجُمل) التي أحدثها دخول أداة التعريف هذه بالمقارنة مع التراكيب القديمة للغات السامية الشمالية الغربية كما حدث للغة الأوغاريتية (إعادة إدخال صيغة الضمائر والتوسع في استخدام الإضافة وأداة التعريف «أل» التي تحدد المصدر). لذلك يمكننا الافتراض أن اللغة العربية بدأت تتكون في القرون الأخيرة من عصر الألف الثاني قبل الميلاد وهي القرون التي أصبحت فيها اللغة الآرامية أو اللغة القريبة منها هي السائدة بين الشعوب السامية التي عاشت تحت الهيمنة الأورية في جنوبي بلاد ما بين النهرين.

من الشائع أن اللغات المشتركة تتكون نتيجة للبروز الثقافي والسياسي لإحدى المراكز الثقافية المهمة؛ وفي جنوبي بلاد ما بين النهرين وسوريا حدث ذلك ثلاث مرات فقط؛ وكانت تلك القوى السياسية المهمة هي: المملكة الإبلية والمملكة المارية والمملكة الميتانية. أما المملكتان الإبلية والمارية فقد ازدهرتا منذ النصف الأخير من عصر الألف الثالث قبل الميلاد حتى النصف الأول من عصر الألف الثاني قبل الميلاد والمرحلة الأخيرة من حكمهما تتطابق مع انتشار اللغة الأمورية التي هي إحدى اللغات السامية الشمالية الغربية. لذلك فمن المحتمل كثيراً أن اللغة الأمورية في المنطقة ذاتها من جنوبي بلاد ما بين النهرين وسوريا حوّلت نفسها خلال الهيمنة الأورية في النصف الثاني من عصر الألف الثاني قبل الميلاد إلى ما نسميه اللغة الآرامية.

هذه اللغة وفقاً لأقدم الوثائق المكتوبة ـ وهي اللغة التي امتد انتشارها من الفترة ما بين القرنين العاشر والثامن قبل الميلاد حتى القرن الثالث بعده ـ تظهر تناسقاً مدهشاً في تركيبها مما يدل على قدم استخدامها كلغة ثقافية ناقلة للفكر.

مقابل ذلك وعلى النقيض مما ذكرناه من قبل فإن اللغات التي كانت توجد في فلسطين ولبنان والأردن في الفترة ذاتها كانت تظهر عدم الترابط في تركيباتها وهذا متوقع من خلال التوزيع المبعثر وغير المستقر للقوى السياسية في تلك المنطقة وبسبب عدم وجود أي مركز ثقافي مهم يغطي تلك المنطقة بأكملها. ونظراً لذلك فقد تعرضت اللغات السامية الشمالية الغربية غير الآرامية لتغييرات أعمق وخضعت بسرعة لتأثير اللغة الآرامية التي أدت في النهاية إلى اندثار تلك اللغات.

ويمكننا الافتراض أنه في نهاية عصر الألف الثاني قبل الميلاد بدأ انتشار لغة الشعب السامي في المنطقة التي تعتبر اليوم الجزء الشمالي الغربي من المملكة العربية السعودية وأكمل انتشاره تدريجاً باتجاه وسط وجنوبي شبه الجزيرة العربية.

وخلال ذلك الانتشار الطويل جنوبي الجزيرة فرضت اللهجات العربية في الشمال نفسها على اللهجات السامية المحلية والمتشددة عبر مختلف الأنحاء بحيث استوعبت بعض ملامحها المميزة (مثل صيغة الجمع والتحول من الكلام بحرف «ب» إلى حرف «في»)، وبذلك تكون قد ساهمت في تضييق منطقة انتشار اللهجات السامية الجنوبية مزيداً نحو

الجنوب. ومن البديهي أن هذه العملية المتواصلة التي كانت تمثل غزواً لغوياً لم تصل إلى نتيجتها النهائية بسرعة لأنه فور انتصار الإسلام هيمنت اللغة العربية على اللغة الحميرية التي كانت سائدة في جنوبي شبه الجزيرة العربية في اليمن والتي لا يزال يتم الكلام بلهجاتها حتى يومنا في مناطق واسعة من جمهورية اليمن الجنوبية الشعبية وفي سلطنة عُمان وتحديداً في مناطق مَهرة وظُفار وفي جزر سقطرة وخوريامويا وهي لهجات قد يصعب على غير اليمنيين من العرب فهمها بسهولة. ولعمري أن مجرد وجود مجموعتين مختلفتين من اللغات السامية في شبه الجزيرة العربية احداهما شمالية عربية والأخرى جنوبية عربية يثبت أن اللغة العربية الشمالية قد انتشرت من الشمال إلى الجنوب.

ولنرَ الآن إذا كان من الممكن الربط بين الفرضية اللغوية التي تقول بنشوء اللغة العربية في الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة وانتشارها التدريجي وهيمنتها في النهاية على المنطقة السامية الجنوبية وذلك على أثر حدوث ظاهرات سياسية أو ثقافية في الشمال. إن الجواب الحاسم حول هذا الافتراض تمكّننا من الحصول عليه المعلومات المتعلقة بالأصول العرقية.

إنه وفقاً لكلام السيد والتر دوستال فإن أقدم تأريخ للعرب يرتبط بقوة مع تطور الحياة البدوية، وإن تطور تلك الحياة يعتمد بدوره على مختلف أساليب استخدام حيوان الجَمَل من قبل البدو. ان الجمال أو الإبل لم ترد بالضرورة من القارة الآسيوية لأن علماء الآثار حصلوا على بقايا عظام تلك الحيوانات في شمالي افريقيا في العصر الحديث، واستناداً إلى هذه الاثباتات الأثرية يمكننا أن نفترض أن هذه الحيوانات أي الإبل قد بدأ تدجينها في عصر الألف الثالث قبل الميلاد. وفي المراحل الباكرة لتدجين الإبل لم يكن لدى رعاتها سوى مدى محدود في الحركة لأن أسلوب امتطاء تلك الإبل كان لا يزال بدائياً بحيث كان يتم استخدام مؤخرة الجمل فقط لغرض ركوبه ولذلك كانت سرعة حركته بطيئة، وبسبب ذلك لم يكن يمكنهم الوصول في الوقت المناسب إلى مناطق الرعي في الصحراء في فصل الشتاء لأنه لم يكن بامكانهم عبور المسافات الطويلة من نبع مائي إلى نبع آخر. لذلك كان لا بدّ لقطعان الإبل أن تكون قليلة العدد ومعظم العرب البداة استمروا في تربية أنواع الماشية الأخرى مثل الأغنام إلى جانب تربية الإبل في السهول المحيطة ببلاد الشام وبلاد ما بين النهرين. وطبقاً لما ورد في التوراة (العهد القديم) فإن ابراهيم كان يملك الكثير من الأغنام والأبقار والحمير والجمال (سفر التكوين XII، و XVI) مع أن هذا الوصف ربما كان يعكس الأحوال المعيشية المتأخرة للآراميين.

بعد حصول استخدام سنام الجَمَل لغرض امتطائه بواسطة استعمال سرج قماشي موسد (كما يظهر ذلك في الرسوم الأشورية التي تظهر راكبي الإبل وهم مسلحون بالقوس والسهام). أقول أنه بعد حصول ذلك بدأ البدو باقتناء أعداد كبيرة من قطعان الإبل وهذا مكّنهم من التوغل بعمق داخل مناطق شبه الجزيرة العربية وأدى بهم إلى أن يتخصصوا في توليد وتربية الإبل وايجاد تنظيم اقتصادي واجتماعي جديد يمكننا تعريفه بالحياة البدوية الأصيلة. هذا التحول من الحياة البدوية التي تعتمد على رعاة الماشية إلى الحياة البدوية الأصيلة bedouinism يبدو أنه حدث في القرن الثاني عشر قبل الميلاد وربما يكون حصل قبل ذلك.

في تلك الفترة الزمنية سجل رعاة الإبل من البدو أول ظهور تاريخي لهم في فلسطين، وفي الكتاب المقدس (سفر القضاة VI ـ VIII) يسمى أولئك الرعيان بالمديانيين ولقد هزمهم جدعون ولاحقهم

حتى منطقة قارقور (التي تسمى اليوم قراقير) في وادي سرحان. وكما نرى فإن أوائل البدو الذين نملك بعض المعلومات عنهم جاؤوا من الجزء الشمالي الغربي من شبه الجزيرة العربية ومن المحتمل أن الظاهرة الاجتماعية للحياة البدوية الأصيلة قد ظهرت في تلك المنطقة بالذات.

إن المنقطة الشمالية بأكملها بدءاً بدمشق كان يحتلها رعاة الماشية والمزارعون الآراميون وتهيمن عليها تنظيماتهم السياسية ومدنهم السكانية. أما البدو الذين يمكن أن نسميهم أوائل العرب فكان عليهم أن يمتدوا نحو جنوب شبه الجزيرة العربية لأنه لم تكن هناك أية سلطة سياسية مهمة تصدّهم عن تلك المنطقة. وفي شبه الجزيرة حصل تلاقٍ بين رعاة الإبل المتخصصين ومجموعات أخرى من الشعوب السامية التي حافظت على ملامحها التكوينية القديمة حتى يومنا الحاضر (وهي ملامح شرق أوسطية في وسط الجزيرة ووديدية في جنوبها) وعناصر شرق أوسطية أخرى تتمثل في الخيّالة المحاربين. كان البدو القدامى خلال ذلك على الإجمال من الصيادين (مثل قبائل شلوبا) وكانوا بدواً رعاة لعدد قليل من الماشية فضلاً عن قبائل متفرقة من صيادي السمك توجد على الشاطىء وبعض المزارعين في الواحات والمناطق المرتفعة من اليمن. وعلى أي حال فإن العرب بدأوا يغزون الأماكن الوسطية من شبه الجزيرة وبدفع المجموعات الحضارية الأخرى بالقوة للاندماج في نظام اجتماعي طبقي بدوي أصيل (أي مرتبط بتربية الإبل). وأحد أهم القوانين التي تحكمت بالصلات بين البدو وعناصر المجموعات غير البدوية كان التزاوج الإلزامي بين رعاة الإبل.

وبتلك الطريقة ولاعتبارات محض سياسية شدد البدويون على تفوقهم السياسي والاقتصادي ضد المجموعات غير البدوية مثل المزارعين ورعاة الماشية والصيّادين وصيّادي السمك فضلاً عن الحرفيين والحدّادين؛ وكان يمنع التزاوج بين البدو الأصيلين وأعضاء المجموعات غير البدوية. أما البنيان الاقتصادي البدوي فكان يتسم بالمحافظة على قطعان كبيرة من الإبل والماشية بينما ارتكز بنيانهم الاجتماعي على مفهوم الانتساب إلى أرومة واحدة وجدود مشتركين.

إن أول شيخ عربي تذكره المصادر الأشورية كان يدعى جنديبو وهو الذي كان قد انهزم على يد شلمنصر الثالث في سنة 853 قبل الميلاد. في ذلك الوقت بدأ سكان المدن في الجزء الجنوبي من شبه الجزيرة العربية بتنظيم تجارة مزدهرة مع مناطق الهلال الخصيب الذي بدأ يتوحد بواسطة قوة لها طموحات دولية. أما في الواحات التي كانت تقع على طرق القوافل التجارية فقد نما عدد كبير من المدن المهمة التي أصبح بعضها أسواقاً تجارية للدويلات الملكية التي كانت تسود جنوبي شبه الجزيرة العربية (من هذه المدن: دَدَن والواحات القريبة من الخليج مثل التاج والقطيف وعين جوان وغيرها). ولقد لعب العرب بالتأكيد دوراً أساسياً في هذه التجارة لأنهم كانوا الوحيدين الذين يمكنهم توفير الجمال الضرورية لنقل البضائع فضلاً عن كونهم كانوا يوفرون دليل السفر داخل الصحراء والمرافقة العسكرية الضرورية لحماية البضائع.

ولكي نفهم نوع الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية التي كان حكام بلاد ما بين النهرين يولونها لجيرانهم العرب يكفي أن نتذكر الرحلات الاستكشافية الأشورية والبابلية التي قام بها تغلا ثبيلاسر الثالث وسرجون الثاني وسنحريب وأهم واحد منهم كان أشور بانيبال. أما آخر حكام بابل وهو بنونيد (556 - 539 سنة قبل الميلاد) فقد أمضى عشر سنين على الأقل في واحة تيماء المهمة ولقد حصل ذلك في

القرن السادس قبل الميلاد قبل ضم بلاد ما بين النهرين إلى الامبراطورية الفارسية بقليل. ونتيجة لذلك انتشرت الثقافة والدين اللذان كانا يسودان بلاد ما بين النهرين باتجاه المنطقة الشمالية من شبه الجزيرة العربية وسادت معهم اللغة الآرامية كلغة رسمية (كما تدلنا النقوش الآرامية التي وجدت في تيماء وتعرض اليوم في متحف اللوفر في باريس) وكانت تلك أول مرة تظهر وتنتشر فيها اللغة الآرامية.

أما في واحة تيماء فقد حصلت ظاهرة أخرى مهمة في القرن السادس قبل الميلاد ربما كانت رد فعل على انتشار وهيمنة اللغة الآرامية: فقد أصبح العرب واعين لهويتهم وبدأوا التعبير عن افكارهم بمختلف لهجاتهم القبلية بحيث استعاروا الألفباء من لهجات منطقة جنوبي شبه الجزيرة العربية وطوروا الأبجدية الخاصة بهم وهي الأبجدية التي امتد استخدامها حتى القرن السادس الميلادي.

ومع وجود اللهجات التيمانية والديدانية Dedanite واللحيانية والثمودية والسيفيائية متمثلة في نقوش كتابية نجد أنفسنا أمام أول وثائق تاريخية للغة التي نسميها اللغة العربية ما قبل الكلاسيكية أو اللغة العربية القديمة والتي كانت الأساس للغة التي أنزل بواسطتها القرآن. هذه النصوص هي في الحقيقة عربية ليس فقط من الوجهة المعجمية واللفظية بل تظهر أيضاً مميزات صرفية وتركيبية تؤكد عربيتها دون لبس وبشكل يميزها عن اللهجات السامية الغربية الأخرى. وأنا أقصد هنا على الأخص ظهور نظام لحروف الجرّ بما فيها حرف «مع» و«في» ومن ناحية أخرى ظهور أداة الربط(أن) (na) an. بالإضافة إلى ذلك تظهر هذه النقوش أول براهين على وجود صيغة الجمع التي تطورت في اللغة العربية بشكل كبير (في اللهجة اللحيانية نجد كلمة «أيم» تتطور لتصبح «أيام» في اللغة العربية وكلمة «أرب» تتطور لتصبح «أرباب»). ومن ناحية أخرى فان لغة النقوش تختلف عن اللغة العربية الكلاسيكية بسلسلة من الميزات الثانية مثل (1) تحول النقطة الفاصلة في الأسماء من «هـ» إلى «ت» وثانياً: تحول أداة التعريف من هَنْ» إلى «أل» وثالثاً: وجود صيغ الضمير «ذو» و«ذي» قبل ادخال صيغ أخرى إلى اللغة مثل «الذي» و«التي» و«الذين»، رابعاً: تأخير الاشارة الوصفية. كما نجد في اللهجة العربية المصرية: النهار «ده» أي اليوم هذا كما في اللهجة اللحيانية هـ ـ قبر ـ ده أي هذا القبر وخامساً: تقديم الأرقام كما نجد في اللهجة اللحيانية مثلاً ان الرقم 29 يُكتب عشرون ـ و ـ تسع بدلاً من «تسع وعشرون».

ومما يثير الاهتمام أيضاً ما نلاحظ من أنه بعيداً عن النقوش التذكارية المكتوبة باللهجات اللحيانية والدية Dedanite، فان معظم النصوص العربية مكتوبة وفقاً لأبجدية لهجات جنوبي شبه الجزيرة العربية وهي تمثل سجلات خاصة للحراس البدويين للقوافل التجارية. من احدى النواحي يمثل ذلك برهاناً على الدرجة المتقدمة للقدرة على القراءة والكتابة عند السكان العرب قبل الاسلام ولكن من ناحية اخرى يُشير إلى انه في النقوش التاريخية والتذكارية كان يفضل استعمال لغة لها تقاليد أدبية خاصة مثل اللغة الآرامية النبطية.

ومنذ أيام المؤرخ الروماني ديودورس سيسولس الذي عاش أيام يوليوس يصر نعرف أنه في السنة 312 قبل الميلاد قام العرب النبطيون بإرسال رسالة رسمية إلى الملك المقدوني انتيغونوس مكتوبة بـ «حروف سريانية» أي باللغة الآرامية. ان تأسيس المملكة العربية النبطية والحاجة إلى وجود إدارة مركزية فضلاً عن الاتصالات التجارية المتنامية مع الشعوب التي تتكلم لغات مختلفة، كل ذلك فرض استعمال لغة ذات مكانة عالية مثل اللغة الآرامية. هذه اللغة

كانت لا تزال تستخدم وتدرس في مناطق تقطنها شعوب آرامية مثل حوران والأردن وهما المنطقتان اللتان يمكن اعتبارهما واقعتين ضمن دائرة النفوذ السياسي والاقتصادي للمملكة النبطية.

إلا أنه من الضروري أن نتذكر أن العرب استمروا في حمل تراث اللغة الآرامية الأساسية على الصعيد الإداري والنقوش الكتابية حتى بعد أن رفض السكان الآراميون في المنطقتين اللتين تم ذكرهما تقديم كتابة لغتهم على اللغة الإغريقية التي تم ادخالها من قبل السلوقيين والتي فضلها الرومان فيما بعد وبذلك حافظت لغتهم الآرامية على مكانتها العالية.

وفي اطار هذا السلوك اللغوي، يجب على المرء أن يعترف بوجود نوع من اعلان الاستقلال السياسي عن السلوقيين ثم عن الرومان ويلتمس الدليل على الكيان الثقافي الذاتي للآراميين. وهنالك إشارة غير مباشرة تفيد أن العرب كانوا سياسياً يفضلون اللغة الآرامية يمكن التقاطها من خلال غياب أي نقوش رسمية باللغة الآرامية بعد سقوط المملكة النبطية (سنة 106 بعد الميلاد) ومملكة تدمر (سنة 272 - 273 بعد الميلاد) ويمكن بذلك القول بأن الرومان أرادوا إنهاء أية مظاهر للحكم الذاتي للعرب والذي كان يعتبر خطراً وبذلك تم منع استخدام اللغة الآرامية.

إن تلك اللغة الآرامية التي استخدمها النبطيون كانت في ذلك الوقت لغة مكتوبة فقط وإن لغتهم اليومية كانت العربية وذلك يظهر من ناحية في أسماء الأعلام النبطية ومن ناحية أخرى في الاستعارات المعجمية العديدة من اللغة العربية والمسجلة في نقوشهم من مثل «جث» = جثّه و«أل» - آل (أي قبيلة) وأصدق = أصداق (أي الورثة الشرعيين) ونسحة = نسخة، وقصرأ = قصاره (أي غرفة)، وصريح 'sryh = ضريح وشلو = شيلو (بمعنى عظام) وهلك = هَلَك (أي مات) وعير = غيّر ولعن = لَعَنَ وصنع = صَنَعَ، وغيرهما؛

وذلك يظهر أيضاً من خلال الاستخدام المحدود للصيغة المصدرية التي يوفرها حرف الجر «ل» (بمعنى إلى) بعد استبداله بحرف «د» وهي ظاهرة تركيبية يمكن فهمها كتملق لغوي للبنى اللغوية العربية مثل ادخال كلمة «أنْ» في عبارة «أريد أن أذهب» بدلاً من «أريد الذهاب» التي تعطي المعنى الحرفي للكلام.

في الواقع ومنذ سنة 106 بعد الميلاد أي منذ اندثار المملكة النبطية نلاحظ بداية تقدم الاستخدام المحدود للحروف الآرامية التي حلت محلها الظروف العربية حتى يمكن القول بأن الانسان النبطي قد حرم من ملامحه النبطية وأصبح عربياً بشكل كامل. هذه العملية المتطورة قدماً بالاستخدام المحدود للغة الآرامية واستبدال العربية بها تظهر في مرحلتها الأخيرة من خلال النقوش الكتابية في المدافن والتي وضعها حاكم غير نبطي هو الأمير اللخمي امرؤ القيس الذي عاش في مدينة الحيرة وذلك في سنة 328 بعد الميلاد في مدينة النماره في سوريا (وهي محفوظة اليوم في متحف اللوفر في باريس).

هذه الوثيقة المهمة المنقوشة تمثل نقطة تحول في تاريخ العرب، فهي تشير إلى التبني النهائي للأبجدية النبطية الآرامية من قبل العرب في لغتهم القومية المكتوبة التي أصبحت منذ ذلك الزمن تستخدم في كل النصوص المكتوبة في كل العالم الإسلامي. وهذا برهان على أن العرب أرادوا التعبير عن أنفسهم بالكتابة منذ تلك اللحظة بلغتهم الخاصة.

من البديهي القول أن ظاهرة سياسية ولغوية كهذه يبرر وجودها بروز لغة أدبية مشتركة بين كل القبائل في شبه الجزيرة العربية وهي لغة سوف تتطور فيما بعد استناداً إلى قاعدة اللهجات العربية الشرقية للتنوخيين في عاصمة اللخميين في مدينة الحيرة على نهر الفرات

لتصبح أكبر تراث ثقافي يعتز به العرب سواء كانوا من العدنانيين أم القحطانيين.

إن أهمية مدينة الحيرة كمركز اشعاع ثقافي ولغوي لكل العرب يتأكد بشكل غير مباشر بواسطة الكتابات الصينية التي تصف منطقة غربي آسيا في القرون الثلاثة الأولى بعد الميلاد. من ناحية أخرى هناك بعض الملامح الإملائية في اللغة العربية مثل كتابة حرف «آ» بالألف واستعمال الألف الفاصلة وهي ملامح يمكن تفسيرها فقط بوجود تأثير للقواعد الإملائية في اللغة التي سادت أواسط فارس واللغة الآرامية التي سادت جنوبي بلاد ما بين النهرين وهما اللغتان اللتان سادتا أيضاً الدولة الساسانية في الحيرة.

وللوصول إلى النتيجة المتوخاة من رحلتنا السريعة عبر التاريخ القديم للعرب ولغتهم نقول بأن العرب والآراميين يمثلون بأفضل أسلوب التناقض الداخلي في تاريخ منطقة الشرق الأوسط الذي يمثل المواجهة بين السكان البدو وسكان المدن. إن الآراميين هم جزء من الشعوب السامية المدينية وشبه البدوية في سوريا وجنوبي بلاد ما بين النهرين الذين عاشوا في عصر الألف الثاني قبل الميلاد وهم الورثة الشرعيين لكل الحضارات التي تتالى وجودها في هذه المنطقة من العالم وبكلمة واحدة هم يمثلون استمرارية الثقافة القديمة.

من ناحية أخرى فان العرب يمثلون العنصر المتحرك والابتداع الاجتماعي لشعب سامٍ عاش في شمال غربي شبه الجزيرة العربية والذي تبنى في أحد الأوقات نظام تربية الإبل كمحور اقتصادي أول له وحول هذا النظام الاقتصادي تمحورت كل ثقافته فكان شعباً دائم الحركة يتعذر على أي قوة سياسية خارجية أن تحرمه من استقلاله. وعندما بدا الزمان صالحاً لتوحيد العرب سياسياً ودينياً اختلطت حركيتهم السياسية بالتراث الثقافي للآراميين.

ومن خلال التداخل والاندماج بين العالم العربي والعالم الآرامي كما يتمثل من خلال الكتابة العربية المستمدة من الأبجدية النبطية الآرامية يجب علينا أن نبحث عن جذور الحضارة الإسلامية.

ترجم هذا المقال خصيصاً لمجلة الفكر العربي عماد ابو سعد